Journal of Social Sciences and Humanities:

الوجود العثماني في العراق: مشروع حضاري، أم احتلال استعماري؟

Muhammed NADİR ALI
Dr. Öğr.Üyesi
Karabük İslami İlimler Fakültesi
Orcid ID: 0000-0002-0073-0746
muhammetnadirali@karabuk.edu.tr

Omar AL ALI
Orcid ID: 0000–0003–1315–1943

omaralali@karabuk.edu.tr

الملخص

بعد اتساع رقعة الإسلام، في عهد الخلافة العثمانية، وبعد انتشاره في القارات الثلاث، سعى الصليبيون والصهاينة أعداء الأمة الإسلامية لتفكيكها، أملًا بتدميرها والقضاء عليها؛ فعملوا بدهاء وخبث، واستخدموا ضعاف النفوس في هذه الأمة، ووظفوهم لزرع الفتنة، وإحداث الفرقة في نفوس المسلمين، وخاصة في البلاد العربية.

فأشاعوا الدعوة للقومية وتعزيز مفهومها في النفوس، واستبدال أخوة الدم بأخوة الدين. وعملت الدعاية الدؤوبة على إفساد ذات البين بين العرب والترك، فعززوا مفهوم الاحتلال العثماني لبلاد العرب، ولفقوا القصص والأخبار الكاذبة عن ظلم الأتراك وجبروتهم، وتسلطهم على العرب في عقر دارهم، كما غرسوا في نفوس الأتراك فرضية خيانة العرب للدولة العثمانية، وطعنها في ظهرها أبان الحرب العالمية.

ونَصَّبوا على بلاد العرب حكامًا موالين لخططهم الخبيثة، وكتبوا التاريخ المزيف بأيديهم الآثمة، وأعدوا مناهج التعليم التي نفثوا خلالها سمومهم.

فطمسوا من ثقافة الأجيال كل سمات الحضارة الإنسانية التي رسختها الدولة العثمانية العلية، ومازالت آثارها باقية في بلاد العرب، شاهدة على بصمات رائعة عريقة، خلَّفها الحكم العثماني هناك؛ وعلى الأخص في العراق، في سائر مدنها ونواحيها؛ من مساجد مشيدة، ومدارس شامخة، ومكتبات عامرة، وجسور معلقة، وطرق معبدة؛ كلها تنم عن نفوس كريمة، ونوايا سليمة، امتاز بها الولاة العثمانيون في تلك البلاد؛ أبان تلك الحقبة من الزمن.

لقد ازدهت مدن العراق حينئذٍ برقي حضارتها، وسبقت كل البلاد المتحضرة في زمنها.

ولو قارن الباحث المنصف بين عهد الحكم العثماني للعراق، وبين الحكم البريطاني الذي احتل البلاد فيما بعد، لانكشف له الغطاء، ولظهر لكل ذي بصيرة الفرق الشاسع بين النور والظلام.

الكلمات المفتاحية

الوجود العثماني، الوالي، العراق، البناء، المشاريع، المساجد

Journal of Social Sciences and Humanities:

The Ottoman Presence In Iraq: A civilized project or a colonial occupation?

Summary:

After the spread of Islam during the era of the Ottoman Caliphate, in the three continents, the Crusaders and the Zionists, the enemies of the Islamic nation, sought to dismantle it. They did so cunningly and maliciously by hiring weak souls of the nation to sow sedition; therefore, they caused division in the heart of Muslims especially in Arab countries.
They spread the call for nationalism and strengthen its concept in the souls, replacing the brotherhood of blood with what they call as, "The brother hood of religion". Moreover, the tireless propaganda worked on spoiling the relationship between the Arabs and the Turks, so they reinforced the concept of the "Ottoman Occupation" in the Arab countries, and they fabricated stories and news about the oppression and tyranny of the Turks. They also instilled in the hearts of the Turks the hypothesis that the Arabs betrayed the Ottoman Empire during the World War.
They appointed rulers on the Arab countries loyal to their malicious plans, wrote false history with their sinful hands, and prepared curricula through which they breathed their poison. They eliminated all the features of human civilization from the culture of the generations that the attic Ottoman Empire had established, and its traces still remain in the Arab countries, bearing witness to the wonderful and ancient fingerprints left by the Ottoman rule there. Especially in Iraq, in all its cities and suburbs like the built mosques, lofty schools, full libraries, suspension bridges, and paved roads which reflect dignified souls and sound intentions, which were distinguished by the Ottoman governors in those countries during that era.
At that time, the cities of Iraq flourished in the sophistication of their civilization and preceded all the civilized countries of their time. If the fair researcher compares the era of the Ottoman rule in Iraq and the British rule that occupied the country later, the cover will reveal to him and the vast difference between light and darkness will appear to everyone with insight.

Keywords:

The Ottoman presence, the governor, Iraq, construction, projects, mosques.

المقدمة

لقد تتابعت المحن على العراق بعد سقوط الخلافة العباسية بيد التتار سنة 656هـ، وبعد الغزو الصفوي سنة 914هـ، ووقوع المذابح والمجازر بأهلها، إلى أن استنجد أهل العراق بالسلطان العثماني سليمان القانوني، لتخليصهم من الظلم الصفوي وعسفه، فجهز جيشًا جرارًا، وقصد العراق مغيثًا أهلها، ومخلصهم من القهر والجور الصفوي.

وكانت للسلطان سليمان بصمات بنيوية في مدن العراق، وسائر البلاد التي كان للسلطنة فيها حضور. وقد خلد التاريخ له تلك البصمات، ومازالت آثارها شاخصة، تنطق بالروح الإنسانية، التي اتسم بها السلطان وولاته، الذين عينهم في سائر البلاد.

فعمارة المساجد، وبناء المدارس، وتعبيد الطرق، وإنشاء الجسور، كلها شاهدة على آثار الوجود العثماني في سائر البلاد التي بسطوا نفوذهم عليها، وتقدم دليلاً واضحًا على المعالم الحضارية، النابعة من القيم الإنسانية، والمبادئ الدينية، التي تحلى بها السلطان وولاته.

فقد انتشر العدل، وساد الأمن، وطبقت القوانين الشرعية التي فرضها السلطان، فعاش الناس في أمان، ونشط الرجال والنساء للبناء، انطلاقًا من ضمائرهم، وحرصًا على استدامة ظل السلطان في ديارهم.

وقد عنى السلطان بعلماء الدين، فجعل القاضي نائبًا عنه في كل بلدة، فمكانته مرموقة، فهو في المركز الثاني بعد الوالي؛ يشرف على جمع الضرائب، ويراقب الأسواق، ويهتم بتطبيق الشريعة في سائر الأحوال الشخصية، ويراجع الوالي في المظالم، وينظر في شكاوى العامة من الناس، فيتابع قضاياهم، ويعزز دعاواهم، ولطالما وقف ضد الوالي فيما يبلغه من الشكاوى.

لقد أغنى الصباح عن المصباح، وظهر الحق الأبلج، فتبين لكل ذي بصيرة، أن الحكم العثماني لبلاد العراق، ولسائر بلاد الإسلام التي انطوت في ظله، كان حضاريًا بنيويًا، نابعًا من قيم دينية ومبادئ أخلاقية، لا ما يدعيه أعداء الإسلام من زور وبهتان: أن الحكم العثماني كان استعمارياً، يسلب خيرات البلاد المحكومة، ويضطهد أهلها.

أولًا - السلطان العثماني سليمان القانوني وبصماته البنيوية في العراق

يقول المؤرخ المصري محمد فريد: "وقصد السُّلْطَان مَدِينَة بَغْدَاد لفتحها، فَلَمَّا اقْترب مِنْهَا تقدم ابراهيم باشا الصَّدْر الأعظم وسر عَسْكَر الجيوش العثمانية، لاحتلالها قبل قدوم السُّلْطَان، فَدَخلَهَا فِي يَوْم 24

جُمَادَى الْآخِرَة سنة 941هـ، 31 ديسمبر سنة 1534م، ووجدها خاوية من الْجُنُود، إذ تَرَكهَا حاكمها بِكُل جُنُوده هربا من الْوُقُوع فِي قَبْضَة الْجُنُود العثمانيين."[1]

وَبعد ان أقام السُّلْطَان فِي مَدِينَة بَغْدَاد مُدَّة أربعة أشهر رتب الادارة الداخلية، وزار قُبُور الائمة الْعِظَام، وبدأ الحكم العثماني للعراق، الذي عده المؤرخون المنصفون إسهامًا بنيويًا في تطور المجتمع العراقي بجوانبه الدينية، والسياسية، والاقتصادية، والفكرية. حيث أسهم هذا الحكم في إعادة تكوين تاريخ العراق، بعد ما ذاق ما ذاق من ويلات الصفويين، ومن سبقهم من الغزاة.

وبدأ التنظيم الاداري في العراق بأمر السلطان سليمان فقسم العراق إلى الولايات التالية: ولاية بغداد، وولاية البصرة، وولاية الموصل، وولاية الاحساء[2]، ثم ولاية شهرزور، التي لم تتضح حدودها، لأنها كانت مسرحا للصدام، المسلح بين الدولتين العثمانية والصفوية [3]

وقد قسم كل ولاية إلى سناجق[4] والسناجق إلى نواحٍ، كما توضح ذلك سجلات الدولة العثمانية الخاصة بولاية الموصل، فدفتر الطابو الذي يخص الموصل والمرقم، 195 والذي يعود تأريخه الى سنة (951هـ – 956هـ) يجعل الولاية خمسة سناجق هي : اسكي موصل ، تكريت ، زاخو ، عانة ، كشاف

كما أسس السلطان سليمان – رحمه الله– جهازًا حكوميًا منظمًا في سائر ولايات العراق، وجعل الوالي برتبة وزير، وله الحكم الأعلى في الولاية، وكانت صلاحيات والي بغداد، أوسع من صلاحيات ولاة الولايات الأخرى. [5]

أ– مهمة الولاة في بلاد العراق:

ومهمة الوالي الرئيسية في الولاية، هي ضمان استمرار الولاء للسلطان، وتأمين العدل والامن، والاشراف على تطبيق القوانين، وقيادة الحملات العسكرية ضد القوى المناوئة للحكم العثماني، حتى عُدَّ مسؤولًا عن سير العمليات الحربية، رغم استقلال قائد القوة العسكرية عن الوالي.

ولم يكن يسمح للوالي المعزول أو أي موظف آخر أن يغادر الولاية إلا بعد أن يثبت براءة ذمته.[6]

ب– مكانة العلماء إبَّان الحكم العثماني للعراق:

---

[1] محمد فريد المحامي، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، تحقيق: إحسان حقي (بيروت: دار النفائس 1401هـ)، ص223.

[2] أصبحت ولاية الاحساء، من الولايات العراقية في عهد السلطان مراد الرابع (1623–1640م). انظر: علي، شاكر علي، **تاريخ العراق في العهد العثماني** (الموصل: منشورات مكتبة ٣٠ تموز 1985م)، ص23

[3] انظر: شاكر علي، **تاريخ العراق في العهد العثماني**، ص22–23

[4] السنجق : كلمة تركية لها معانٍ متعددة منها الراية والعلم واللواء، والمقصودة هنا الوحدة الإدارية أصغر من الولاية محددة الرقعة. انظر: رينهارت بيتر آن دُوزِي، **تكملة المعاجم العربية** (بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية 1979م –2000م) ج6، ص162.

[5] شاكر علي، **تاريخ العراق في العهد العثماني**، ص23–24.

[6] شاكر علي، **تاريخ العراق في العهد العثماني**، ص 26.

ويظل الدين الإسلامي شعار الدولة الأقدس، وللعلماء في الدولة مكانتهم الاجتماعية، ومنزلتهم القيادية ؛ وفي كل ولاية من ولايات العراق قاضٍ له مكانة مرموقة ، فهو يأتي في المركز الثاني في الولاية، كما أنه نائب السلطان العثماني، والمسؤول عن تطبيق العدل بين الناس، والاهتمام بالقضايا الشرعية، مثل: الزواج، والوراثة، وحفظ أموال اليتامى ،كما انه يحمل صلاحية الاشراف على جمع الضرائب، ومراقبة الأسواق، وتسعير السلع المتوفرة فيها، ومراقبة سلوك الوالي، وكثيرًا ما وقف القاضي ضد الوالي بسبب شكوى بلغته من بعض الناس.[7]

وكان يساعد القاضي في تنفيذ ما يصدره من أوامر موظفان: أحدهما يعرف باسم "صوباشي"، وآخر "احتساب أغاسي" أي المحتسب.[8]

ت- النشاط الإعماري للولاة العثمانيين في العراق:

أما النشاط الإعماري للدولة العثمانية في العراق فقد كان الاهتمام بالبناء واضحًا، خصوصًا بناء المساجد، لما يعتريهم من شعور ديني من أن المسجد هو بيت الله، وهو ايضا بيت الجماعة، لذلك ازداد اهتمامهم ببناء المساجد في العراق وغيرها من البلاد التي يحكمونها.

فكان المسجد في زمنهم مقرا للقضاء وللتقاضي، ومعهدا للتعليم، وظلت المساجد مفتوحة ليلاً ونهارًا ، يأوي إليها من لا يجد له مسكنًا، وللمسافرين والمتعبدين ولمعالجة المرضى.

وأغلب المساجد المشيدة في العهد العثماني تشبه التكايا، حيث تضم مسجداً بمئذنة، وقاعات للتدريس، وحجرات لسكن الطلبة؛ ولم تكن المساجد قاصرة على تدريس العلوم الدينية والادبية، بل كانت تدرس فيها العلوم الطبيعية كذلك.[9]

ث- الفنون الزخرفية العثمانية

وقد ورث العثمانيون، من السلاجقة الفنون الزخرفية، فكانت زخرفاتهم للمساجد وغيرها من المنشآت المعمارية آية من آيات الجمال. مازالت تفصح عن ذوق فني مذهل، في كل مكان وطأته أقدامهم من العالم الإسلامي؛ كما توحي بأن كل ما صنعه الانسان المسلم يشهد له بحسن الذوق، ورهافة الحس، ولا فرق عنده في هذا المجال الزخرفي بين المباني الدينية والمدنية.

و قد كانت لهم أساليبهم الزخرفية الخاصة، والتي شملت جوانب مختلفة ومنها: الزخارف النباتية، والزخارف الهندسية، والزخارف الكتابية، و يمثل جامع المرادية في بغداد نموذجًا حيًا للطراز المعماري

---

[7] شاكر علي، **تاريخ العراق في العهد العثماني**، ص 26- 27.

[8] شاكر علي، **تاريخ العراق في العهد العثماني**، ص60.

[9] شاكر علي، **تاريخ العراق في العهد العثماني**، ص233.

العثماني؛ وقد أمر بإنشاء هذا الجامع الوالي مراد باشا سنة 978هـ؛ والذي كانت له سوى هذا المسجد أعمال عمرانية كثيرة[10].

ج- بناء المدارس، والاهتمام بالتعليم

كان للعثمانيين عناية خاصة ببناء المدارس، وأولى المدارس المستقلة، المدرسة النظامية ببغداد، أسست سنة (457هـ / 1065م) ، ثم فتحت أبوابها للتلاميذ بعد ذلك بسنتين[11] وكذلك مدرسة الامام ابي حنيفة النعمان بن ثابت، التي شيدت سنة (459هـ / 1067م).

وقد أنشئت في العهد العثماني المدارس الحديثة، مثل المدرسة الرشيدية المدنية، والمدرسة الرشيدية العسكرية، وفتحت جميع هذه المدارس في مدينة بغداد.

وقد تم تأسيس المدرسة العلية عام (1761م) بأمر من والي بغداد علي باشا (1761م-1763م)، وكانت تقع على نهر دجلة. وقدكتب على واجهتها: أنها جاءت بأمر من والي إيالة العراق، ومدير أمورها على الإطلاق، أبو المعالي والمحاسن، علي باشا والي بغداد عام (1176هـ)[12].

ثانيًا - الإنجازات الحضارية للولاة العثمانيين في العراق (مدحت باشا أنموذجًا)

وقد تنافس الولاة على تنمية البلدان التي يحكمونها، وتسابقوا لبناء الثقة بينهم وبين سكان تلك البلاد بخدمتهم، والسعي لرفاهيتهم؛ ووالي بغداد مدحت باشا [13] أُنموذج حي لإنجازات الولاة العثمانيين في العراق.

كان مدحت باشا يتمتع بالصدق والإخلاص والأمانة في أداء أعماله، وكذلك امتاز في القدرات الإدارية المتميزة، والمواهب الشخصية المتعددة.

فقدكان عهد ولاية مدحت باشا لبغداد نقطة تحول في تاريخ الدولة العثمانية؛ وقد وصف مدحت باشا بأنه أعظم والٍ عثماني أرسل إلى العراق.

وظهرت الآثار الإيجابية، والأعمال الإصلاحية للدولة العثمانية في العراق، بصورة جلية بعد وصول مدحت باشا في شباط عام 1869م؛ حيث عين والياً على ولاية بغداد، حيث وصل إليها يوم 18

---

[10] كوك، ريجارد، **بغداد مدينة السلام**، ترجمة: فؤاد جميل ومصطفى جواد (بغداد: مطبعة شفيق 1967)، ج ،1ص 144.

[11] ناجي معروف، عبد العزيز الدوري، **موجز تاريخ الحضارة العربية** (بغداد: دار الحديث، د.ت)، ص 155. مصطفى جواد، أحمد سوسة ، **دليل خارطة بغداد** المفصل (بغداد: المجمع العلمي العراقي 1958م)، ص 154.

[12] عبد الحميد عبادة، **العقد اللامع بآثار بغداد والمساجد والجوامع** (بغداد : مطبعة انوار دجلة 2004م)، ص 142.

[13] ولد مدحت باشا في الأستانة شهر صفر من عام 1238 هـ. 1822 م لأب من القضاة يدعى الحافظ محمد أشرف. وأكمل دراسته باللغة العربية وحفظ القران الكريم وتعلم اللغة الفارسية والخط ومبادئ العلوم الأخرى على يد بعض علماء الدين. ثم انخرط في سلك الوظائف الحكومية، فعين كاتباً في إحدى الدوائر الحكومية في العاصمة ثم عمل في دمشق وقونية، وتدرج في سلم الوظائف إلى أن وصل عام 1852م إلى وظيفة رئاسة لجنة تفتيشية في ايالتي دمشق وحلب فنجح في مهمته نجاحاً باهراً وحظي بتقدير واحترام رؤسائه. انظر: خير الدين بن محمود الزركلي، **الأعلام** (بيروت: دار العلم للملايين 2002م)، ج7، ص195-196.

محرم من عام 1286هـ . 30 نيسان عام 1869م، وشهدت ولاية بغداد إبان وجوده فيها تقدماً كبيراً في المجالات كافة.

وقد أكمل مدحت باشا ما بدأ به سلفه نامق باشا، بتشييد الأبنية العامة، وتأسيس المعامل العسكرية، وبناء المستشفى، ودار لعجزة، ودور للأيتام، والمدارس لطلبة العلم، ومدَّ خط التراموای بين الكرخ والكاظمية، كما قام بالإصلاحات في الإدارة المدنية العسكرية لأول مرة في بغداد، وفرض الخدمة العسكرية، وأسس المجالس والإدارات البلدية، وطبق نظام الولاية الجديد، وتم تحديد صلاحيات وواجبات كلٍ من الوالي، والمتصرف، والقائم مقام، ومدير الناحية، وقام بإنشاء مدينتي الناصرية، والرمادي، وفي عهده، تم ضم لواء الأحساء، وأقضيته القطيف وقطر[14] .

كما بدأ برصف الطرق، بدلاً من الأتربة صيفاً، والوحل شتاءً، ومعاناة سكان بغداد من ذلك. فأمر بتبليط (شارع المأمون) الذي كان يسمى سوق البلنجية، ثم صار اسمه (عقد الصخر) لأنه رصف بالحجارة[15].

ومن أعماله المهمة: توطينه القبائل الرحل، وإعادة الأراضي الزراعية الواسعة في العراق للاستيطان. الأمر الذي ساهم في تعزيز الأمن والاستقرار بشكل عام[16].

أ- تنظيم الولايات

وقد شرع مدحت باشا بإدخال الإصلاحات في ولاية بغداد منذ أول يوم لوجوده. فأول عمل قام به تطبيق نظام الولايات الصادر سنة 1864م، حيث قسم الولاية إلى سناجق والسناجق إلى أقضية والاقضية إلى نواحٍ. وقد استمر هذا التقسيم إلى نهاية العهد العثماني.

كما قام بتعيين موظفين إداريين على رأس كل وحدة من تلك الوحدات الإدارية، وأنشأ العديد من الإدارات الحكومية، وشيد أبنية لعدد من دوائر الدولة.

وأهم الدوائر الحكومية التي قام بإنشائها هي: - دائرة الطابو، أو الدفتر الخاقاني (التسجيل العقاري) حالياً. - دائرة نفوس (الأحوال المدنية) حالياً، - دائرة النافعة (الأشغال العامة) حالياً، - ودوائر البلدية في مدن الولاية. - تشكيل مجلس المعارف، - تنظيم دوائر الإدارة النهرية - تنظيم محاكم الولاية، وإعادة تنظيم أعمال مجلس إدارة الولاية، مؤكدا على أعضائه ضرورة قيامهم بأعمالهم، وفق ماتمليه عليهم مصلحة الولاية العليا، دون خوف أو مجاملة.

---

[14] عباس العزاوي المحامي، **موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين** (بيروت: الدار العربية للموسوعات 2004م)، ج 7، ص 195.

[15] عباس العزاوي، **موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين**، ج 7، ص 209.

[16] ستيفن هيمسلي لونكريك، **أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث** (بيروت: الرافدين للطباعة والنشر 1949م)، ص 286.

– كما قام بإنشاء مجالس إدارة في الوحدات الإدارية، وفق الترتيب الذي نص عليه نظام الولايات لسنة 1864م، ومجالس الولاية والإدارة، والمعروف اليوم بنظام (مجالس المحافظات)، و(المجالس البلدية للأقضية والنواحي).

ولقد قد حارب مدحت باشا الفساد الإداري، فبدأ حملته بعزل كبار الموظفين المرتشين في الإدارات، أمثال قائم مقام راوندوز، ومدير ناحية عانة وقاضيها، وساقهم إلى المحكمة. وسافر إلى كربلاء للتحقيق مع المتصرف وموظفيه، فقرر عزله من منصبه[17] .

ب– النهضة الصناعية

وكانت الصناعة همه الشاغل، لخلق نهضة صناعية حديثة في العراق، فأنشأ مدرسة الصنائع؛ لتعليم الشباب البغدادي المهن، التي تكفل احترافهم، وتجعلهم عمالاً مهرة، وتسد حاجة بعض المؤسسات للفنيين كعمال المطبعة، أو المعامل، والمطاحن، ومكائن الغزل والنسيج، التي جلبها لبغداد. وتوفر لهم فرص عمل، تعيلهم وأسرهم بدلاً من البطالة، أو الأعمال البسيطة.

وقد قام مدحت باشا بجمع التبرعات من التجار والمحسنين من بغداد والبصرة، ومدن عراقية أخرى، وكان طلابها وعددهم 144 طالباً من الفقراء والأيتام، الذين لا معيل لهم، أو لا يتمكن أحد من تربيتهم.

كان الطلاب يتعلمون فيها الحدادة والنسيج وصناعة الأحذية وغيرها من الحرف؛ وتم إنشاء الصفوف في مخيم أولاً لحين الانتهاء من بناء المدرسة[18].

واستمرت المدرسة بعملها حتى انسحاب الدولة العثمانية من العراق عام 1917م؛ وبعد سيطرة القوات البريطانية على العراق. حيث أوقف البريطانيون نشاط المدرسة لأغراضهم الاستعمارية.[19]

ت– الإصلاح المالي

كما سعى مدحت باشا لإصلاح النظام المالي، والإدارة المالية للولاية، فألغى بعض الرسوم والضرائب المحلية مثل رسوم (الاحتساب)، وهي رسوم متنوعة، منها الرسوم التي تؤخذ عند أبواب المدن على المنتجات التي تدخلها لتباع في أسواقها. وضريبة (الطالبية) وهي ضريبة تفرض على المواكب التي تعمل في النهار.

---

[17] علي الوردي، **لمحات اجتماعية من تاريخ العراق** (بغداد: دار الكتاب الإسلامي 2005م)، ج 2، ص 252.

[18] عباس العزاوي، **موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين**، ج7، ص 208-209.

[19] تم اتخاذ المبنى عام 1928 مقراً لسكن الملك فيصل الأول. ثم زيد فيها بعض القاعات، واتخذت محلاً لمجلس الأمة، فمحكمة عسكرية خاصة هي (محكمة المهداوي)، ثم متحفاً حربياً، ثم تم تجديدها لتصبح قصراً للثقافة والفنون. وفي عام 1995 أصبحت مقراً لبيت الحكمة، وهي مؤسسة معنية بالثقافة والفكر والنشر. انظر: محمود شكري الآلوسي، **أخبار بغداد وما جاورها من البلدان**، تحقيق وتعليق: عماد عبد السلام رؤوف (بيروت: الدر العربية للموسوعات 2008م)، هامش ص 336.

وضريبة (خمس الحطب)، وهي ضريبة تفرض على الوقود مثل الأخشاب والفحم ومقدارها 20% من القيمة. وضريبة (روس البقر)، وهي ضريبة تفرض على الأراضي الزراعية، وتسمى بـ (النواعير). و كذلك إعفاء بذور قصب السكر الواردة إلى الولاية من الرسم الجمركي، بغرض تشجيع زراعة وإنتاج السكر.[20]

ث- تسهيل المواصلات

واهتم بطرق المواصلات ووسائطها، ففتح عددًا من الطرق البرية، ونظم أعمال البواخر الحكومية، التي عرفت بـ (الإدارة النهرية) وطهر نهري دجلة والفرات.

وربط مدينة بغداد بضاحيتها، مثل قضاء الكاظمية بواسطة خط (الترام)، الذي كانت تجره الخيول.

ووجه العناية بمدينة بغداد، وبعض المدن الأخرى، وقام بتبليط بعض الشوارع، وأضيئت بعض شوارعها وفتح حديقة عامة، عرفت بـ (ملت باغجه سي) أي (الحديقة الوطنية) .[21]

ج- بناء المستشفيات

كما قام ببناء المستشفى العام في الجانب الغربي من بغداد (جانب الكرخ)، عن طريق جمع التبرعات من الأهالي، وسمي المستشفى بـ (مستشفى الغرباء)، وهيأ له الأطباء والمستلزمات الطبية اللازمة [22].

ح- بناء الجسور

لقد كان مدحت باشا يحمل فكراً منفتحاً ويبحث عن سبل التقدم لإخراج بغداد من حالة التخلف، وإنقاذها من كوارث الأنواء الجوية كالفيضانات.

فقد ذكر الرحالة الأميركي وليم فوك (1926م- 1909م) أنه أثناء زيارته لبغداد عام 1874م علم من المترجم "ستانو" أن مدحت باشا كان يفكر ببناء جسر معلق عبر دجلة في بغداد آنذاك، لأنهم مضطرون في كل سنة أن يفككوا الجسر العائم إلى قسمين لمدة شهرين أو ثلاثة، خشية أن يأخذها تيار الماء السريع. وقد أدْهَشْتُه عندما أخبرته بأن أكثر الأماكن جسوراً هي أمريكا. وأن فيها أطول جسر معلق في العالم. فرجاني ملحاً أني عند رجوعي إلى أميركا أجعل حكومة الباشا على اتصال مع إحدى الشركات الهندسية المعروفة. وهو شعور طيب تجاه بلادنا[23].

خ- أول مطبعة في بغداد (المطبعة والجريدة)

ومن أهم مظاهر الحضارة العثمانية التي دخلت بغداد في عهد مدحت باشا هي المطبعة. إذ تم طلب شراء المطبعة قبل استلامه الحكم في بغداد، من قبل سلفه نامق باشا. وكان داود باشا قد أصدر جريدة

---

[20] عباس العزاوي، **تاريخ العراق بين احتلالين**، ج 7، ص 199.

[21] عباس العزاوي، **تاريخ العراق بين احتلالين**، ج 7، ص 199.

[22] عباس العزاوي، **تاريخ العراق بين احتلالين**، ج 7، ص 199.

[23] أوليفييه، **بغداد بأقلام رحالة**، ترجمة: يوسف حبي (لندن: دار الوراق2007م)، ص 175.

(جورنال عراق)، وهي أول جريدة عراقية وعربية. إذ صدرت في السنة الأولى من حكم الوالي داود باشا عام 1816م بغداد. وبذلك فإن صحيفة (جورنال عراق) سبقت أول صحيفة مصرية (الوقائع المصرية) باثني عشر عاما، حيث لم تصدر إلا عام 1828م عندما أمر بتأسيسها محمد علي باشا[24] .

د- صحيفة الزوراء في العراق

أمر مدحت باشا بإصدار أول جريدة في العراق سميت بـ(زوراء) التي صدر العدد الأول منها في 5 ربيع الأول 1286هـ (1869م)[25].

لقد أراد مدحت باشا أن تدون وتؤرخ فيها أعماله وخطبه، وليقرأها الناس والموظفون. وقد أصبحت أفضل مرجع يوثق فترة عهده ومن جاء بعده من الولاة. وقد صدرت باللغتين التركية والعربية لاطلاع الجمهور العراقي والموظفين الأتراك على ما تنشره[26].

ذ- تنظيم الشرطة والجيش

اهتم مدحت باشا باستتباب الأمن الداخلي في المدن والقرى. ولذلك سعى إلى تنظيم شؤون القوات الأمنية والعسكرية بشكل ينقلها من الفوضى إلى النظام. بموجب (قانون إدارة الألوية) كان الهيكل التنظيمي للشرطة أو تسمى آنذاك بـ(الضبطية) في مركز الولاية يتشكل من قائد الشرطة برتبة زعيم) يرأس ثلاثة ألوية (يسمى فوج). [27]

ر- التجنيد الاجباري في العراق

وجد مدحت باشا أن أمور الشرطة مبعثرة وغير منظمة، فأمر بإعادة تنظيم تلك التشكيلات. كان في بغداد آنذاك ثمانية آلاف شرطي يسمون (باشي بوزوق) وينطقه البغداديون (باشبوزغ)، فتم إلغاؤها وتأسيس كتيبة خيالة تتألف من (2400) فارس، وكردوس مشاة يضم (4000) شرطي. كما تم توزيعهم على عدة سرايا في مناطق متعددة من بغداد وتعيين ضباط لها من مختلف الرتب. كما تم تنظيم ملابس كل صنف إضافة إلى أسلحتهم. كان أولئك الضبطية أو الجندرمة بمثابة شرطة العصر الحالي (14). كما تم إصدار قانون الخدمة العسكرية الإلزامية حيث تم تطويع آلاف من المواطنين في مراسم

---

[24] علي الوردي، **لمحات اجتماعية من تاريخ العراق**، ج 1، ص 256.

[25] عباس العزاوي، **تاريخ العراق بين احتلالين**، ج 7، ص 199.

[26] تضم مكتبة المتحف العراقي ثلاث مجلدات من جريدة الزوراء أهديت لها من المكتبة الشرقية للآباء المرسلين الكرمليين في بغداد عام 1918 تضم الأعداد (126-248) و (426-521) و (522-608) على التوالي. وتضم المكتبة المركزية لجامعة بغداد مجلداً واحداً يضم الأعداد (56-152). كما كانت أعداد من الجريدة موجودة في مكتبة المؤرخ عباس العزاوي، ومكتبة باش اعيان بالبصرة ومكتبة هاشم الآلوسي مفتش التربية السابق، ومكتبة محمد أسعد العينتباوي بحلب (الأعداد 146، 1200، 1450، 1516، 2187، 2194). إضافة إلى مجموعة الباحث يعقوب سركيس، التي أهداها إلى جامعة الحكمة، وهي أعداد سنة واحدة. المصدر: (مدونة بشار الحادي) في الانترنت http://bashaaralhadi.blogspot.com/2010/12/1875.html

[27] عباس العزاوي، **تاريخ العراق بين احتلالين**، ج 7، ص 199.

خاصة تجرى فيها القرعة، نقلتها صحيفة الزوراء. وتم تشكيل (دائرة رديف)، وأطلق اسم (كوكلية) على الجنود المتطوعين. وصار الجنود ينتمون لجيش نظامي ويستلمون رواتب منتظمة.

ويعد مدحت باشا من أشهر الولاة العثمانيين في العراق، الذي لم يحكم بغداد سوى ثلاث سنوات (1869م-1872م)، لكنها كانت سنوات مفعمة بالإنجازات والإصلاحات، بشكل غيّر من الحياة الرتيبة التي كان المجتمع العراقي والبغدادي قد اعتاد عليها.

وفي 13 مايس من عام 1872م قدم الوالي مدحت باشا استقالته لصدر الأعظم (محمود نديم باشا) فقبلت على الفور استقالته وغادر بغداد وعاد إلى اسطنبول.[28]

الخاتمة

وهكذا يتبين لكل منصف متأمل للعهد العثماني في العراق، أن ولاته كانوا يتأسون بالخلافة الراشدة، التي درج عليها السلف الصالح من هذه الأمة المباركة. وأن الوازع الإيماني، والانتماء الديني قد تغلَّبَ على سائر الانتماءات العرقية والقومية والمناطقية.

كما يبدو جليًا لكل متبصر أن البلاد التي تولت السلطة العثمانية شؤونها، كان ولاتها يسعون على تنميتها لتحضيرها، ورفاهية أهلها، لا يرتبط سعيهم وجدهم بقوم دون قوم، ولا بقطر دون قطر، أو مملكة دون مملكة.

وهذه آثارهم شاهدة عليهم، مهما اجتهد الحاقدون والحاسدون لطمسها، أو إخفاء معالمها. أما من أعمت بصيرته العصبية القومية، والجاهلية العرقية، والتبعية العمياء للدسائس الصليبية، والصهيونية، والصفوية، فلا يرى إلا السديم: [ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ] [النور:40/24].

[28] عباس العزاوي، **تاريخ العراق بين احتلالين**، ج 7، ص 199.

المصادر والمراجع:

- **القرآن الكريم**
- أوليفييه، **بغداد بأقلام رحالة**، ترجمة: يوسف حبي (لندن: دار الوراق2007م).
- خير الدين بن محمود الزركلي، **الأعلام** (بيروت: دار العلم للملايين 2002م).
- رينهارت بيتر آن دُوزِي، **تكملة المعاجم العربية** (بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية 1979م –2000م).
- ستيفن هيمسلي لونكريك، **أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث** (بيروت: الرافدين للطباعة والنشر 1949م).
- عباس العزاوي المحامي، **موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين** (بيروت: الدار العربية للموسوعات 2004م).
- عبد الحميد عبادة، **العقد اللامع بآثار بغداد والمساجد والجوامع** (بغداد: مطبعة انوار دجلة 2004م).
- علي الوردي، **لمحات اجتماعية من تاريخ العراق** (بغداد: دار الكتاب الإسلامي 2005م).
- علي شاكر علي، **تاريخ العراق في العهد العثماني** (الموصل: منشورات مكتبة ٣٠ تموز 1985م).
- كوك، ريجارد، **بغداد مدينة السلام**، ترجمة: فؤاد جميل ومصطفى جواد (بغداد: مطبعة شفيق 1967).
- محمد فريد المحامي، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، تحقيق:إحسان حقي (بيروت: دار النفائس1401 هـ).

- محمود شكري الآلوسي، **أخبار بغداد وما جاورها من البلدان**، تحقيق وتعليق: عماد عبد السلام رؤوف (بيروت: الدر العربية للموسوعات 2008م).
- **مدونة بشار الحادي في الانترنت** http://bashaaralhadi.blogspot.com/2010/12/1875.html.
- مصطفى جواد، أحمد سوسة، **دليل خارطة بغداد المفصل** (بغداد: المجمع العلمي العراقي 1958م).
- ناجي معروف، عبد العزيز الدوري، **موجز تاريخ الحضارة العربية** (بغداد: دار الحديث، د.ت).